۱۶۶۲۷

مجله	البرهان
تاریخ نشر	جمادی الاوّل ۱۳۸۴
شماره	۳ و ۴ مجلد ۵۲
شماره مسلسل	
محلّ نشر	لبنان
زبان	عربی
نویسنده	رشید وهبی
تعداد صفحات	۳۲۵-۳۱۸
موضوع	الکتاب الخالد - ۱ -
سرفصلها	وجوه اعجاز قرآن
کیفیّت	
ملاحظات	

الكتاب الخالد

بقلم رشيد وهبي

- ١ -

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد واهداء

قال صاحبي : ما هي معجزة نبيكم ؟

قلت : أتتجاهل وتتغافل ؟

قال : لا ، ولكنني اعلم ان معجزة ابراهيم برودة النار ، وموسى السحر وانشقاق البحر والمسيح احياء الموتى وشفاء الاكمه والابرص ، فوددت لو اعرف معجزة محمد ووجه الاعجاز فيها .

قلت : اسمع . ما هي المعجزة ؟

قال : هي على ما اعلم ، ما لا يستطيع الناس الاتيان بمثله لأنه فوق طبيعتهم ويتجاوز مقدرتهم .

قلت : حسن ما تقول ، فما بالك بمعجزة تتحدى الانس والجن على مر الايام والاعوام ، وقد وقفت عندها قدرة البشر طوال اربعة عشر قرناً من الزمان .

قال : تثبت ما اتت لأجله وتلقم ناكريها احجاراً تسد افواههم .

قلت : فالقرآن معجزة محمد .

وقال محدثي دهشاً : القرآن ؟ وهل هو الا كتاب ، واين الاعجاز فيه ؟ وما هي وجوهه وما هي ادلته ؟

قلت : سيطول بنا الأمر . سأوجه اليك رسالة قصيرة فيها ما يجعلك تدرك حقيقة القرآن وما يقوّم من أفكارك عنه وعن اعجازه ويجلو لك ما خفي عليك منه .

قال : فليكن ...

القرآن الكريم معجزة خالدة

لم تكن معجزات نوح وابراهيم وسليمان وموسى وعيسى «ع» سوى وقتية ، ولم يشهدها الا من كان قائماً وقت حدوثها ثم زالت بزوال دوافعها وظروفها . ونحن اليوم ان كنا نعرفها فليس ذلك الا بواسطة النقل والإخبار .

وشاءت حكمة الله تعالى ان يجعل خاتم انبيائه ورسله معجزة خالدة ابد الدهر ، يشهدها ابناء اليوم كما شهدها ابناء الامس ، وسيشهدها ابناء المستقبل كما نشهدها نحن اليوم : هذه هي القرآن الذي جمع كل نواحي الاعجاز من بلاغة وفصاحة الى اسلوب ونظم الى المعنى القوي والمبنى المحكم . فالقرآن بذلك الآية الكبرى على صحة رسالة محمد ﷺ والبرهان القاطع الساطع لاثبات نبوته .

تحدي القرآن دليل على انه إلهي

اهتم الجاهليون قبل الاسلام بالبلاغة والفصاحة لان متانة اللغة ركن مهم من اركان الأدب والخطابة والشعر وكانت هذه الفنون دأبهم ومحط انظارهم ومرقى آمالهم . فجاء القرآن الكريم متحدياً لسُنائهم ولغويهم . والمعجزة لا تسمى معجزة « الا اذا وقع بها التحدي بدئيا ، فان هذا التحدي ميزان ينصب بين القدرة والعجز ، ولا تستطيع ان تقول: هذا معجز الا اذا تحديت به الناس فعجزوا عنه » . لذلك طلب القرآن من جماعة الكفرة ان يأتوا بمثل القرآن . قال تعالى : « قل فاتوا بكتاب من عند الله » . القصص ٤٩

ثم اكتفى فطلب من الكفار عشر سور فقط ، فقال : « ام يقولون افتراه ، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا إله الا هو فهل انتم مسلمون » . هود ١٣ و ١٤

ولما لم يستجب الكفرة وعجزوا عن عشر سور طلب منهم القرآن واحدة فقال :

« وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين » . البقرة ٢٣

ولكنه سبحانه يعلم انهم لن يستطيعوا الاتيان بشيء من مثله فقال : « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين » . البقرة ٢٤

وبعد تلك المبالغة في التحدي عاد القرآن فأعلن ان الانس والجن اقصر من ان تطال ايديهم جميعا ذلك البناء الإلهي الجبار فقال : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا

بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . الاسراء ٨٨

ولهذا التحدي حكمة بالغة هي ان يشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عنه ، وهم الخطباء اللدّ والفصحاء اللّسن ... حتى لا يجيء بعد ذلك فيا يجيء من الزمن ، مولد او اعجمي او كاذب او منافق او ذو غفلة فيزعم ان العرب كانوا قادرين على مثله وانه غير معجز وانه لا يعجز عنه الا الضعيف ، فيا لله من سمو هذه الحكمة وبراعة هذه السياسة التاريخية لأهل الدهر .

ولو كان القرآن ، حقا ، غير معجز لاستطاع العرب ان يجاروه ولتوصلوا الى قرآن غيره ، ولنقضوه معنى ومبنى ، ولكنه كتاب الله « الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » . فصلت ٤٢

القرآن معجز

وكيف لا يكون معجزاً وهو الذي « سفه أحلام العرب وخلع آلهتهم ، وقمع طغيانهم ، واشتد عليهم بالعنف محضا بعد اللين ممزوجا ، حتى جُعلت دماؤهم كأنما ترقرق في بعض آياته ؛ ثم لم يهدأ عنهم بل ردد ذلك وكرره وعمهم به وأرسله في كل وجه وقرّع انوفهم وهاج منهم حمية الجاهلية .. ثم لم يمنعهم ذلك وما الى ذلك من ان ينقادوا ثم ينقادوا » .

والكلام عن اعجاز القرآن ووجوهه يطول ، ولكننا سنأتي ، في هذه الوريقات ، على ذكر بعض أوجه الاعجاز . وسنعرض للكلام عن :

١ ــ البناء اللغوي والاسلوب في القرآن .
٢ ــ البناء العلمي .
٣ ــ البناء المعنوي والعقلي .

البناء اللغوي في القرآن

اختار الله جلت حكمته العرب واصطفاهم بالدين الحنيف وانزل عليهم القرآن بلغة الضاد فصيحا بليغا لا يجاريه في ذلك بشر من قريب او بعيد .

اما بلاغته فهي مما لا يستطيع انسان انكارها . فالحرف والحرف ، والكلمة والكلمة ، والجملة والجملة كل ذلك يؤلف لُحمة متماسكة لا انفصال لها ، لا يغني بعضها عن كلها ، ولا تأتلف ولا تنسجم الا اذا اجتمعت واتحدت ؛ كلمة واحدة اذا حذفت من آية تذهب بروعتها وتحط من بهائها وجلالها . كلمة واحدة اذا بدلت بأخرى ذهب المعنى واختل

نظام المبنى . كلمة واحدة اذا اضيفت بدا للاذن ان هناك حشواً ما ، ولا بد ان يستبعد حتى يستقيم المعنى ثانية .

فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه ؛ لان يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة ؛ وهذا هو السر في اعجاز جملته اعجـــازاً ابديا ، فهو امر فوق الطبيعة الانسانية وفوق ما يتسبب اليه الانسان ، اذ هو يشبه الخلق الحي تمام المشابهـــة وما انزله الا الذي يعلم السر في السموات والارض .

والبلاغة علم لم يكن معروفا عند العرب ، ولكنه عُرف بعد الاسلام ، بعد ان اعتبر العلماء القرآن مثالا وانموذجا للروعة اللغوية وحسن البناء المنطقي . وفي ذلك قال مصطفى صادق الرافعي : « ان القرآن كان علم البلاغة عند العرب ، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم» (١) .

فن النظم في القرآن

النظم في القرآن معجز غريب ، فهو مما لم يكن للعرب قبل الاسلام ، ومما لم يتـــأت لهم بعده طوال عصور واجيال . ذلك انهم شعروا ان جهودهم تكل دونه وان قدراتهم مهما عظمت وقويت تنضب أمام معين القرآن وتياره المتدفق السيال دوما .

ان نظم الجمل والآيات في القرآن غريب في بابه ، جديد في طرازه ونوعه ؛ فتنظيم كلمات الآيات وارتباط بعضها ببعض لهو مما يقف كالطود الشامخ دون منال اللغويين والادباء حملة الاقلام . حتى الحروف في القرآن تجتمع وتتلاحم لتؤلف كلمات وجمل لهـــا وقع موسيقي خاص ونغم جميل ولحن رائع . ومن الاعجاز المعجز ان ينفرد القرآن الكريم ، دون غيره من الكتب والاسفار والروائع الادبية العديدة ، بهذه الصفات والخصائص .

ومن الممكن واليسير ان يعبّر عن اي فكرة او معنى بأي لغة من اللغات ، الا ان لغة القرآن واسلوبه ونظمه لما تعجز عنه لغات العالم أجمع . لذا استبعدت ومنعت ترجمة القرآن لان اي لغة لا تستطيع ان تؤديه على الوجه الاكمل . ومما يساق في هذا المجال ان بعضهم اخذ الآية : « احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ، هن لباس لكم ، وانتم لباس لهن» فترجمها « هن بنطلونات لكم وانتم بنطلونات لهن » فتأمل ...

---

(١) اذا علمنا ان البلاغة ليست في الغريب من الكلمات ، فلنضف ان ادب ما بعـــد الاسلام ارفـــع طبقة من البلاغة مما في عصور الجاهلية وقبل الاسلام وذلك بفضـــل القرآن . راجع ما كتبـــه ابن خلدون في هذا الشأن .

التركيب اللفظي في القرآن

تتجلى الروعة في ابهى حللها في الفاظ القرآن الكريم وتراكيبه . وما من قارىء للقرآن او سامع له الا ويعترف بغرابة هذه التراكيب مع جمالها ، واستحداثها في اللغة العربية . ومع ان تركيب القرآن اللفظي غريب الا انك لا تجد فيه « الا ألفاظا مؤتلفة متمكنة ، في النظام يسردها وتناسق وجوهها ، لا ينازع لفظ واحد منها الى غير موضعه ، ولا يطلب غير جهته من الكلام ، ولعمري ان اتفاق هذا الاحكام العجيب مع غرابة الوضع ، لهو اغرب منها في مذهب البلاغة ، وادخل في باب العجب لولا ان الامر إلهي ولا عجب من قدرة الله » .

وكل العلماء قد مضوا على ان الفاظ القرآن بائنة بنفسها ، متميزة من جنسها ، فحيثما وجد منها ترتيب في نسق الكلام ، دل على نفسه واومأت محاسنه اليه .. ومن اجل ذلك كله نقول ان العرب اوجدوا اللغة مفردات فانية ، واوجدها القرآن تراكيب خالدة ، وان لهذه اللغة معاجم كثيرة تجمع مفرداتها وابنيتها ، ولكن ليس لها معجم تركيبي غير القرآن .

معجزة الاسلوب في القرآن

ان اسلوب القرآن ليس باسلوب شعري لانه غير مقفى ولا يتقيد بقيود الشعر واوزانه قال تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » . فالاسلوب القرآني ، اذن ، نثر رفيع سام تربطه روابط خاصة هي ما تسمى بالايقاع الموسيقي في القرآن . وبكلمة ان اسلوب القرآن اسلوب خاص جداً يتميز به عن غيره ويتعرف السامع اليه لاول وهلة . ومرد ذلك الى ان القرآن ليس من صنع البشر والا لأتى مشابها لاساليبهم وطرقهم اللفظية .

ولعله من الواضح ان النسق القرآني قد جمع بين خصائص النثر من جهة والشعر من جهة اخرى . فالتعبير في القرآن قد تخلص من القافية وقيودها الموحدة الرتيبة والتفعيلات التامة والبحور فتستت له بذلك الحرية المطلقة في التعبير عن المعاني والاغراض . والتعبير القرآني استعار من الشعر الموسيقي والوقع والنغم والفواصل التي تغني عن التفاعيل والتقفيه المتقاربة التي يستغنى بها عن القوافي .

الجرس الموسيقي في الاسلوب القرآني

يتمتع الفن الشعري دون النثر بأنه مقيد بأنظمة تقوم على مراعاة الايقاع الموسيقي ومع ان القرآن الكريم ليس بشعر الا ان نظمه البديع والتركيب الفني المتناسق للحروف والكلمات جعله يفوق الشعر الانساني روعة في الاداء الموسيقي المعبر والنغم الايقاعي الجميل .

فلو أخذنا بعين الاعتبار ان مادة الصوت بسكناته وحركاته هو سبب ومظهر الانفعال الوجداني والنفسي لرأينا ان القرآن يبلغ الذروة في استثارة الشعور المتدفق من أعماق النفس البشرية ، فيمس شغافه عند دواعي الرفق ويهزه هزاً عند الشدائد . حتى ان اصحاب القلوب المتحجرة من أهل الزيغ والالحاد ، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في انفسهم ، لتلين قلوبهم وتهتز لدى سماع القرآن وذلك فقط لأن فيهم طبيعة انسانية ولان تتابع العبارات والاصوات على نسب معينة بين مخارج الحروف المختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الانسان .

التكرار والرد على المآخذ فيه

مال القرآن الكريم الى التكرار في بعض مواضعه فبعض آيات القرآن تنتهي بهذه المقاطع « ان الله عليم خبير » و « ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » و « قليلا ما تذكرون » و « الله يحب المحسنين » و « لا يهدي القوم الكافرين » .

ان ترديد الكلمة او الجملة يزيد الكلام قدرة على التعبير ، ويزيده فصاحة وبلاغة . ولم يورد الله تعالى هذا التكرار الا لأسباب . فمن ذلك التذكير بفضل الله ونعمه الكثيرة والحض على الخير والزجر عن المنكر والتهديد والوعيد وتقديم الموعظة وبسط الحجة وغير ذلك من الامور التي تستلزم الاعادة لانها تزيدها رسوخاً وتجعلها سهلة الاذكار ، صعبة النسيان ..

على ان بعض من غمضت عليهم الامور وغمت على عيونهم غشاوة وعلى قلوبهم ظلمة حسبوا ان التكرار في كتاب الله مما يعيبه ويفسد عليه نظمه وحسنه وبلاغته . فعلى هؤلاء ان يعرفوا ان التكرار ليس بمستحدث في القرآن فقد كان عند العرب طريق من الطرق التي اتبعوها في اساليبهم ، وكانوا يوردونه في موارد شتى منها التخويف والتأكيد والتفجع والتهويل وكذلك يراد به المبالغة في التحدي ، باداء المعنى الواحد على صورتين مختلفتين نظماً وترتيباً ووجهاً وعبارة ، وكذلك يثبت منه ان الله تعالى غير عاجز عن تكرار ما قال لنسيان او غيره ، فهو يكرره ويثنيه في قوالب مختلفة وما لغيره تعالى تلك المماثلة مع وقوع الفعل .

ومن حكمة التكرار استعمال منطق اهل اللغات المختلفة ، فتجيء الكلمة في الآيتين على وجهين كـ « براء وبريء » في قوله تعالى : « انني براء مما تعبدون » وقوله : « وانني بريء مما تشركون » فالاولى لاهل الحجاز والثانية لتميم وسائر

العرب . وذلك في معنى الاعجاز والتحدي ابلغ وادل لانه ينزل بألسنة القبائل وما كان لقبيلة ان تتكلم لسان اخرى ، فكيف يتفق لمحمد ﷺ ان يتكلم بأساليب القبائل جميعاً .

على ان التكرار في القرآن لا يبدو متكلفاً البتة ، فهو يأتي في سياق الآية او في آخرها قوياً معبراً ذو هدف دون ان يدع للملل طريقاً الى النفس ، ولا عجب فكلام الله لا يمل .

المحسنات اللفظية في اسلوب القرآن

ان تقصي المحسنات اللفظية في القرآن عمل يطول وقد لا ينتهي . ففي آية واحدة وجد علماء اللغة اثنين وعشرين نوعاً من المحسنات اللفظية مع ان كلمات الآية تعد سبعة عشر . وهذه هي :

« وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي ، وغيض الماء وقضي الامر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » (١) . ومن الاعجاز ان القارىء او السامع لهذه الآية لا يلاحظ التوشية والزخرف فيها ، انما يجدها طبيعية مستساغة المبنى ، رائعة المعنى بليغة اللغة في غير صعوبة ، متينة التركيب في غير تعقيد . وهذا لعمري اعجز الاعجاز ومنه في القرآن الكثير .

اللفظ وتعديد مواضع استعماله

وبذلك اغنى القرآن مفردات اللغة العربية وزادها مرونة ولياناً . فنحن نعلم ان كلمة الاسف تعني الحزن على ما فات ، الا ان القرآن استعملها بمعنى الغضب في قوله تعالى : « فلما آسفونا انتقمنا منهم » .

وعدد القرآن ، من ناحية اخرى ، معاني الكلمة الواحدة ، وجعلها تقوم في مواضع كثيرة مقام كلمات شتى فلفظة الهدى مثلا ، ورد لها في القرآن سبعة عشر وجهاً من اوجه الاستعمال وكذلك كلمات السماء والصلاة والفتنة والرحمة (٢) . وذلك مما لم يكن للعرب في الجاهلية وما قبل الاسلام ، فلم تستعمل الكلمة الا في مواضعها وهذا ما يبين لنا سبب كثرة الالفاظ والكلمات في لغة الادب من عصور الجاهلية وتعقيد لفظها وضيق افقها ومواضع استعمالها ضيقاً شديداً .

---

(١) قيل ان ابن المقفع عارض القرآن فلما وصل الى هذه الآية قال «هذا مالا يستطيع البشر ان يأتوا بمثله» ومزق ما كان اختلقه .

(٢) عد بعضهم الكلمات التي عدد القرآن الكريم معانيها فوجدها تنيف على ٧٠٠ كلمة . وعد بعض آخر اكثر من مائة كلمة من غير اللغة العربية عربها القرآن .

اسلوب القرآن واسلوب الحديث النبوي

بين اسلوب القرآن الكريم واسلوب الحديث اختلاف بيّن واضح لا يقبل الشك والريب فاذا رجعنا الى كتب الاحاديث وقابلناها مع القرآن وجدنا ان اسلوب الحديث النبوي من الأساليب المألوفة لدى العرب اما اسلوب القرآن الكريم فهو كحدث لا يعرف له مثيل في لغتهم وآدابهم .

« كما وان الحديث النبوي تستشعر من وراء اسلوبه بشخصية بشرية وذاتية يعتريها الضعف وتعتز بهذا الضعف أمام الله ، بخلاف القرآن الذي يتراءى لك من خلال آياته ذاتية جبارة عادلة لا تضعف . فلو كان القرآن من كلام محمد لكانت اقواله والقرآن صنوين ومن المتعذر على الشخص الواحد ان يكون اسلوبان في بيانه يختلفان اختلافاً كبيراً احدهما عن الآخر» .

فهذا الاختلاف الواسع المدى بين اسلوب القرآن واسلوب الحديث والذي يدركه من له إلمام ببسائط اللغة العربية يشهد بأن القرآن وحي إلهي .

صيدا رشيد وهبي

فأما الزبد فيذهب جفاء

دخل الجاحظ يوماً ديوان المكاتبات فرأى قوماً وقد صقلوا ثيابهم ، وصففوا عمائمهم ووشوا طررهم ، فقال :

ـ هؤلاء كما قال الله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء » ـ ظواهر نظيفة وبواطن سخيفة « فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون » .

ظريف ومغنيتان

كان لرجل ظريف مغنيتان ، احداهما حاذقة حسنة الغناء والاخرى متخلفة لا يحب ان يسمع لها صوتاً . وكان اذا غنت الاولى طرب واشتد به الطرب ، حتى انه ليشق قميصه ويمزقه من فرط التأثر والاهتياج . فاذا اخذت الاخرى تغني ، قعد يخيط قميصه ويرتق ما تمزق منه !

جواب احمق

قيل لعجيل بن لجم ـ وكان احمق ـ : ما سميت فرسك ؟ فقام اليه وفقأ عينيه وقال : سميته الاعور .